

البحث عن شريك أثناء قصف الصواريخ

فاجأنا إيهود باراك في البرهة التي تلت قمة كامب ديفيد، حينما راح يردد مرة بعد مرة، وآخرها يوم ٣٠ تشرين الأول الماضي، إنه يريد السلام ويعمل من أجل السلام ولكنه لا يجد شريكا فلسطينيا!

أبعد هذا الملف الطويل من المفاوضات العلنية المستمرة منذ مؤتمر مدريد في تشرين الأول ١٩٩١، وقبلها وبعدها اللقاءات السرية التي لا يعرف عددها وأشخاصها وأسرارها أحد، يقال إن الشريك الفلسطيني مفقود؟ مع من إذن دارت تلك المفاوضات؟ مع من عقدت وثيقة إعلان المباديء في أيلول عام ١٩٩٣؟ وبروتوكول العلاقات الاقتصادية في نيسان ١٩٩٤؟ والاتفاقية الإسرائيلية - الفلسطينية المرحلية حول الضفة الغربية وقطاع غزة في أيلول ١٩٩٥؟ ومذكرة واي ريفر في تشرين الأول ١٩٩٨؟ واتفاق طابا في؟

لا يستطيع المرء أن يصدق أن أحدا من رجال الحكم أو رجال المعارضة كافة في إسرائيل، يجهل حقا أن ما قدمته قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من تنازلات من أجل الوصول إلى تسوية قد جاوز الحدود القصوى، حتى إن نسبة ذات وزن من المواطنين في الشارع الفلسطيني والعربي والإسلامي وقفت موقفا عدائيا من المفاوضات والمفاوضين الذين استمروا - مع ذلك - صابرين في هذا (الماراتون) مدة سبع سنوات متواصلة..

فلولا السجل النضالي والمكانة الأدبية لهذه القيادة، وما وفره هذا السجل وتلك المكانة من رصيد لدى الناس، لما استطاع أحد أن يفكر - مجرد تفكير - في تخطي العديد من المحرمات التي نشأت - وكان طبيعيا أن تنشأ - إثر احتلال فلسطين وإخراج أهلها منها عام ١٩٤٨. فمنذ تلك اللحظة صار الكفاح المسلح والتدريب العسكري والسلاح هو المطلب الشعبي الوحيد للفلسطينيين، ولم يعد مقبولا من أي عربي أن يلتقي بأي إسرائيلي إلا في ساحة قتال لاسترداد الأرض السليبة. وأصبحت عبارة (العدو) في قانون العقوبات تعني عند العرب الإسرائيلي، وتعني عند الإسرائيليين العربي. وحينما وافقت القيادة الفلسطينية على الالتقاء بالإسرائيليين على أرضية التسوية لا على أرض المعركة، وتحت سقف التقاسم لا سقف التحرير، فقد كان ذلك تنازلا أحدث صدمة لدى الكثيرين. وعندما قبلت القيادة الفلسطينية مبدأ الجلوس في مفاوضات ثنائية سرية في أوسلو، بعد أن تعسرت مفاوضات واشنطن، ثم انكشف الأمر جهارا، فقد كان ذلك تنازلا أحدث صدمة أخرى. وعندما قرأ الناس نصوص وثيقة إعلان المباديء طالعوا تنازلات أحدثت لديهم صدمة جديدة. ثم توالى الاتفاقات والوثائق، وهي تحمل في طياتها استبدال مبدأ الاقتسام الذي لم تتقبله الأغلبية أصلا بمبدأ الاحتلال المقتنع الذي لا يقبله أحد.

فإذا كان مقصد إيهود باراك هو العثور على شريك فلسطيني من صناعة إسرائيلية أو أمريكية، يقبل الشيء الذي يعطى له طاعة وامتنالا، مقابل أموال أو امتيازات يكفلها له الإسرائيليون، ثم يقضي ما بقي من عمره في محاولة ترويض شعبه على ذلك بالحديد والنار محيطا نفسه بجدار من الاحتياطات الأمنية خشية الاغتيال، ثم تكون نهايته - على أحسن الفروض - شبيهة بنهاية إميل لحد وجيشه، فإن ذلك لن يصنع سلاما ولا هدنة. فأما أنه لا يصنع سلاما فذلك لا يحتاج إلى برهان. وأما أنه لا يصنع هدنة فالسبب أن الناس إذا صبرت فإنما تصبر من أجل أمل في وضع أفضل.

وماذا بعد القيادة التاريخية، الحائزة على الشرعية الثورية، والشرعية الديمقراطية؟

ما مواصفات الشريك الذي يريده باراك؟!

أهو الرجل الذي يضع توقيعه على وثيقة التنازل عن المسجد الأقصى؟

يا للحماقة...!! فالمسجد الأقصى مكان مقدس لا تصح عليه التصرفات التعاقدية ولا يملك أحد أن يعطيه لأحد. وأي مسلم يجروء على مثل هذا الأمر، يكون كمن أمسك بقلم وشطب سورة الإسراء من المصحف الشريف. فعمله محض جحود وهراء لا يعدو أن يثير ثائرة الناس عليه. أما سورة الإسراء فتبقى في ملايين المصاحف إلى يوم الدين.

وقيام شارون بمداهمة المسجد الأقصى في ذلك اليوم المشؤوم، وسط الحرس الحكومي الذي زوده به باراك، كان أمرا يتعدى التحدي العسكري والسياسي إلى التحقير الديني والقهر العقائدي. ولو أن لشارون وباراك طابورا من الشركاء يضم ألف خائن من صنف الجنرال الفرنسي بيتان كانوا مجندين مجهزين بمعرفة الشين بيت والموساد لكي يوقفوا ثورة الناس بعد ذلك لما استطاعوا أن يوقفوا ثورة أصغر تلميذ فلسطيني في البلاد.

هل نقول إن من المدهش أن المسؤولين الإسرائيليين لم يروا في مداهمة شارون المسجد أي خطأ؟ ولم يروا في تسخير باراك الحرس الرسمي لفتح طريق تلك المداهمة أية مسؤولية؟ هل نقول إن من المدهش أن ينبري بن عامي فور تفجر ثورة الدماء في البلاد ليقول إن بوسع ياسر عرفات أن يوقف العنف، يعني إن تدنيس المسجد بواسطة صانع المذابح شارون، تفرض على شريك السلام أن يسارع إلى إزالة آثار ذلك الدنس بيديه وعلى حسابه، وإلا لم يعد شريكا؟

هل يعقل أن تكون عقول هؤلاء الناس على هذا المستوى من البساطة فيظنوا أن بوسعهم استغباء الناس بكلام كهذا؟ كلا. فالمداهمة كانت عملا مقصودا وتأمريا ومتفقا عليه بين الجنرالين اللذين ينقصهما التمييز السياسي وبعد النظر، ولكن من المؤكد أن لـديهما بحكم مهنتهما الحربية فكرة كاملة عن آلية إعداد خطط العمليات بمقدماتها ونتائجها. وقد سبق لمراجع صحفية أن تحدثت عن رؤية الأجهزة السرية الإسرائيلية، بعد فشل قمة كامب ديفيد، حول الخطة التي يتعين اتباعها لإجبار الفلسطينيين على القبول بالإملاءات المرفوضة. لقد عرض شارون نفسه على باراك للقيام بالبادرة التي اختيرت بخبث لإثارة الشارع الفلسطيني، ومن ثم لافتتاح حمام الدم الذي سيعقب تلك الإثارة، وقد أثار ذلك خيال الجنرال باراك ووجد خطة حقل الشوك جاهزة في الأركان لتحريك القوات ومحاصرة المناطق الفلسطينية بالدبابات، ومع ذلك تحدثت الأخبار عن ذهابه بنفسه إلى غرفة العمليات لتطوير الخطة وإدارة عمليات القتل بنفسه. وما زال هذا الدولار دائرا دون توقف، حتى بعدما طرأت على الموقف أمور لم تكن في حسابان شارون وباراك. وعلى رأس هذه الأمور تحرك الشارع العربي.

إنها المرة الأولى التي يتحرك فيها الشارع على هذا النحو منذ عقود طويلة من الزمان. وقد كان حجر الزاوية في السياسات الأمريكية طوال تلك العقود كتم أنفاس الشارع العربي وإجهاض إمكانية تحركه، وفرض الإذعان على الأنظمة وهي معزولة عن شعوبها. ولا بد أن فريق صانعي القرار الأمريكيين الذين تعنيهم المصلحة الأمريكية أولا، ويرون أن تكون المصالح الإسرائيلية تابعة للمصالح الأمريكية، ينظرون إلى التطورات الأخيرة بقلق، ويقدرّون - ولو بينهم وبين أنفسهم ووفقا لمنطقهم الخاص - أن الطريقة التي تصرف بها شارون وباراك أضافت مزيدا من المشاعر السلبية تجاه الأمريكيين في نفوس شعوب المنطقة المليئة أصلا

بالمشاعر السلبية. وأن الإسرائيليين وأتباعهم في أمريكا لا يقتصدون في الإنفاق من جيب دافع الضرائب الأمريكي والخزينة الأمريكية.

أما فريق صانعي القرار الأمريكيين الذين تعنيهم المصلحة الإسرائيلية أولاً، ويسخرون المصالح الأمريكية من أجل الرؤية والمصلحة الإسرائيلية، فلا شك أنهم يقللون من خطورة أية حركة وظاهرة احتجاج عربية، ويوصلون الحقائق إلى الجمهور الأمريكي مقلوبة، ويعتمدون على شبكة واسعة من أعضاء الكونغرس الممولين صهيونياً يحركونهم بأصابعهم ليحملوا الإدارة الأمريكية على عدم انتهاج سياسة مستقلة عن السياسة الإسرائيلية في المنطقة العربية والإسلامية.

بسبب هذا الفريق المسيطر تصدر جزافاً عن الإدارة الأمريكية تصريحات الإدانة للجانب الفلسطيني وللرئيس الفلسطيني وللمفاوض الفلسطيني. وتحت مظلة هذا الفريق يتكلم باراك عن عدم وجود شريك، وعن الحاجة إلى شريك آخر.

فماذا ستكون العاقبة بعد هذا كله؟

الآثار الملموسة حتى الآن تتلخص في ثورة حجارة شعبية عامة في فلسطين، وتهديد جدي للقوات الأمريكية التي وضعت تحت حالة طوارئ قصوى في الخليج. وكتلتهما تكلفان مليارات الدولارات التي تدفعها الخزينة الأمريكية وكتلتهما قابلتان للدخول في أطوار جديدة أكثر عنفاً وأوسع مدى وانتشاراً.

أما التقولات والإشاعات التي أخذ المستعربون المدسوسون يوزعونها في سياق خطط الحرب النفسية، وغايتها بث الانقسام والفرقة في الصف الفلسطيني، واستغلال الظواهر السلبية في الأداء للتحريض على نوع من الاستنزاف الداخلي، فلم يأخذها الناس على مجمل الجد والصدق.

ولكن الوهم الذي زال في الحقيقة هو الوهم بأن باراك يمكن أن يكون شريكاً في السلام أو أنه يختلف أدنى اختلاف عن شارون ونتنياهو. فالفلسطينيون هم الذين لم يجدوا - على الرغم من تنازلاتهم - شركاء من البداية وحتى اليوم!!

